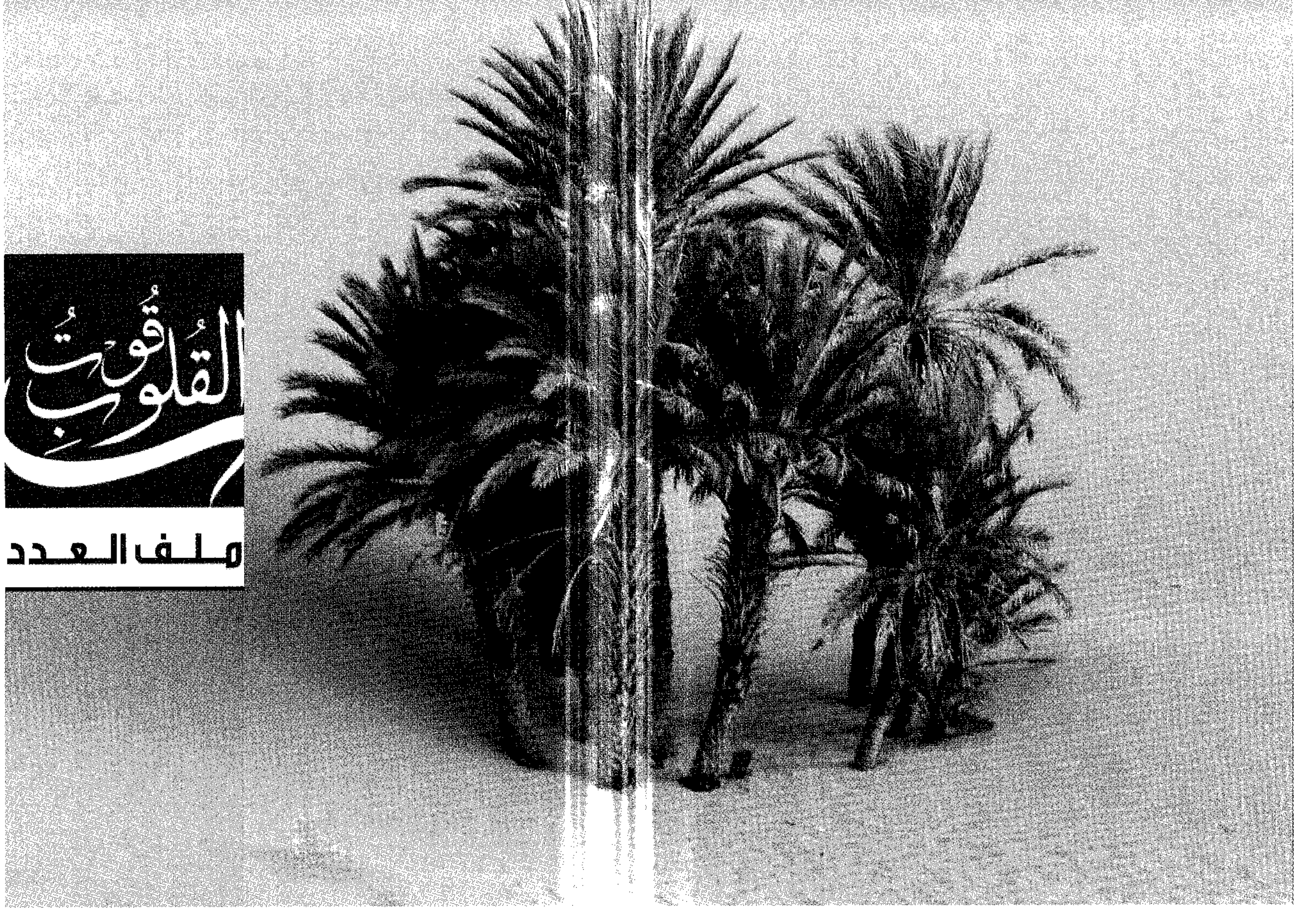

جهود صوفية المغرب في خدمة الفقه المالكي.. الشيخ محمد بن ناصر التمكروتي الدرعي نموذجا

د. الحسن أشفري
أستاذ الفقه المالكي وأصوله بالغرب الإسلامي - أكادير

تهدف هذه المقاربة العلمية لجهود الصوفية في خدمة الفقه المالكي إلى إبراز الدور العلمي للصوفية في خدمة الفقه الفروعي للمذهب المالكي الذي ارتضاه المغاربة مذهبا لهم في العمليات عبر التاريخ. ولما كان تقديم النماذج العالمة خير وسيلة لتبيان الدور الصوفي في هذا الجانب، فقد اخترت الشيخ ابن ناصر التمكروتي الدرعي لما له من مكانة علمية راسخة ومرتبة صوفية معلومة، قصد تجلية الجهد الصوفي في خدمة الفقه المالكي.

وإذا كان التصوف قد عرف بأنه: «علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك»(1). كما أنه إذا كان التصوف

هو: «استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني»[2]. فمن البديهي أن نجد العلماء الربانيين هم الذين يتصدرون أعلام الصوفية، بل والمدارس الصوفية؛ لأنهم يعلمون قبل غيرهم أن صفوة الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم كان يوجه اهتمام أصحابه لإصلاح قلوبهم، ويبين لهم أن صلاح الإنسان متوقف على إصلاح قلبه وشفائه من الأمراض الخفية والعلل الكامنة، وهو الذي يقول: «ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»3. كما كان عليه الصلاة والسلام يعلمُهم أن محل نظر الله إلى عباده إنما هو القلب قائلا: «إن الله لا ينظرُ إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم»[4]. ولا شك أن الذي يعرف تاريخ المغرب السياسي والفكري والديني سيعرف رجالا كبارا، وعلماء عظاما، كان لهم دور محوري، في نشر الوعي الديني والثقافي، وتحرير البلاد من سيطرة الأجنبي وعتوه، كما كان لهم الدور الكبير في نشر العلوم الشرعية، وفي مقدمتها الفقه المالكي، الذي يعتبر ركيزة من ركائز هذه الأمة الضاربة في التاريخ، وإعلاء شأنه بتعلمه وتعليمه للأجيال، وتركيز أصوله وقواعده في قلوب الناشئة وعقولها، وترسيخ إشعاعه ونوره، وتوجيهاته في المجتمع وبين أفراده، ليسيروا على هديه، ويتعلموا من دروسه، ويقتبسوا من مدده.

وهكذا نجد الصوفية الكرام في مقدمة الذين ساهموا في إثراء المكتبة الفقهية المالكية التي أينعت ثمارا في المغرب، ووجهت الناس، وأحسنت توجيههم، وعمقت دراسة الفقه وحبه في الأوساط المغربية، فنشأ بذلك فقهاء وعلماء ربانيين وانتشروا، وتكون أجيال من العلماء والأئمة والمجتهدين فيها، وكتبوا وأبدعوا الشروح والحواشي والتعاليق، وتفننوا فيها كتبوا وأبدعوا حتى اشتهروا في العالم الإسلامي حفاظا للمتون، ومفتين بارزين، وشارحين مبدعين، في مجال الفقه المالكي. ونجد في مقدمة هؤلاء الصوفية الذين خدموا المذهب المالكي عموما والفقه المالكي خصوصا، العالم الكبير سيدي محمد بن ناصر التمكروتي الدرعي.

والحديث عن هذا العالم الكبير، والقطب الوهاج، لا يمكن حصره في صفحات معدودة، ولكن سأحاول أن أتطرق في سبعة محاور تحاول الوقوف على حياته، وطريقة التحاقه بزاوية تمكروت، وشيوخه وتلامذته، وزهده وتقشفه، ومكانته العلمية، وآثاره العلمية، ومنهجه في التأليف من خلال أجوبته.

أولا: حياة سيدي محمد بن ناصر

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن ناصر بن عمر الدرعي[5] الأغلاني نسبة إلى أغلان[6]، أثبت له صاحب الدرر النسب إلى الصحابي الجليل المقداد بن عمر الكندي، بينما أثبت له صاحب طلعة المشتري النسب إلى جعفر بن أبي طالب في سلسلة أربعة وثلاثين أبا[7]، اشتهر بابن ناصر نسبة إلى جده، كانت ولادته كما أوردها صاحب الدرر المرصعة قائلا: «قال أبو العباس أحمد بن محمد الجزولي الشهير بالهشتوكي رحمه الله في كتابه "إنارة البصائر في ذكر مناقب القطب ابن ناصر"... ما صورته ومن خطه نقلت: «ولد الشيخ رحمه الله ورضي عنه في رمضان الذي أنزل فيه القرءان في يوم الجمعة الذي هو سيدُ الأيام وعيد الأنام إحدى عشر وألف 1011 هـ من الهجرة النبوية»[8].

تلقى تربيته بين أحضان أسرته، حيث نشأ في حجر والده، كما تعهدته أمه فاطمة بنت أحمد بن يحيى بن ناصر التي تجتمع مع أبيه في «ناصر»، وهو الأب الخامس[9]، تولته أمه بكامل عنايتها، وقرأ القرءان على يد والده، وانتقل بعد ذلك إلى تسركات فصاحب عالمها الشهير الشيخ أبي الحسن علي بن يوسف الدرعي[10]، ومحمد المصمودي[11]، وعبد القادر الفاسي[12].

ولما استكمل دراسته على يد شيوخ أجلاء آخرين، رجع

إلى بلدته «أغلان» ليقوم بأمر عيال أبيه، ولكنه سرعان ما رحل إلى بلاد «دادس» برسم الشرط، فنزل «بالجرفة»، وهي قرية أبي الحسن علي بن محمد الدادسي صاحب «اليواقيت في علم المواقيت» دفين القاهرة، ليعود بعد أعوام ثلاثة إلى الجامع الكبير بقريته أغلان، وأصبح إماما بهذا الجامع الأعظم، ثم تصدر للخطابة والتدريس، فكبر في أعين الناس، وعظم قدره في العلوم الدينية والدنيوية، وسنه يومئذ بضع وعشرون سنة. وكان لعلمه وورعه محط تعظيم وتقدير لدى رجال المخزن⁽¹³⁾.

ثانيا: كيفية التحاقه بزاوية تمكروت

كان الشيخ محمد بناصر في أول أمره كما أسلفت في جامع أغلان متصفا بالعلم والورع والجاه عند الخاصة والعامة، ثم ترقت همته إلى التصوف، فصار يبحث عن شيخ يصلح للتربية، ليأخذ عنه، فبحث في قرى درعة عن شيخ تتوفر فيه شروط القدوة والإتباع، وبعد تفكير وتدقيق ومشاورة، أخبره صهره سيدي محمد الحريبلي الساحلي بوجود رجلين صالحين تابعين لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعليهما سيمتا الخير والصلاح بتمكروت، وهما الشيخان الجليلان: سيدي عبد الله بن حساين القباب، وسيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري⁽¹⁴⁾، فوفق الشيخ بناصر للذهاب إليهما وعمره آنذاك سبع وعشرون سنة. فأعجب بالشيخين وما هما عليه من الأحوال المرضية الموافقة للشريعة المطهرة وسنة الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وخلا بسيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري وطلب منه مصاحبته لأخذ الطريقة الشاذلية على يد الشيخ سيدي عبد الله القباب، فقال له: عليك أن تستخير الله قبل ذلك، فقال الشيخ بناصر في نفسه: هذا علامة أخرى على اتباعهم للسنة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه الإستخارة ويأمرهم بها. فاستصحبه إلى الشيخ المذكور فلقنه الورد، فأعجب بهما، ورغبا في مصاحبته ومعاشرته، وتعليمه العلم ونشره في زاويتهما⁽¹⁵⁾. فصار الشيخ بناصر يتردد عليهما، وكلما جلس إلى شيخه يخاطبه هذا الأخير بقوله: «لو وجدنا فقيها نضمه إلينا ينفعنا بعلمه وننفعه. فعلم الشيخ بناصر أنه المقصود من كلام شيخه، واعتذر له بدعوى أن له أبوين لا يريدان مفارقته⁽¹⁶⁾، ولما اعتذر له بذلك طلب منه أن يصحب معه أبيه عند زيارته القادمة، فاستشار محمد بن ناصر أباه في المسألة الزيارة فوافق عليها، وزارا الشيخين فرحبا بهما وبالغا في إكرامهما، ثم تكررت زيارة أبيه للشيخين حتى فاتح سيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري ذات يوم في الموضوع قائلا له: «إننا نريد أن تترك لنا ولد سيدي محمد يقيم عندنا بالزاوية لنشر العلم وبثه في أرجاء هذه البلاد⁽¹⁷⁾. فاعتذر له الأب بدعوى أنه لا يستطيع مفارقة ابنه، لأنه يحول بينه وبين أرباب المخزن، وأنه إمام وخطيب بأغلان، فقال له أحمد الأنصار: «لا تخف منهم فإن الله تعالى بفضله يحول بينك وبينهم»، بينما قال له ابنه سيدي محمد(بناصر): «لا عليك فهم بيدي أعتذر لهم بأني أردت أن أزداد علما ينفعني وينفعكم، وهذا والدي يقوم مقامي»⁽¹⁸⁾. وهكذا التحق الشيخ بناصر ليأخذ عن الشيخين المذكورين ويزداد علما إلى أن مات الشيخ الأكبر سيدي عبد بن حساين القباب الذي خلف، وانتقلت المشيخة إلى تلميذه ومساعده في تسيير شؤون الزاوية الشيخ أحمد بن إبراهيم الأنصاري، بينما اهتم محمد بن ناصر بتدريس العلوم الشرعية للطلبة في الزاوية، ولم يحض بالمشيخة وتولي أمر الزاوية إلا بعد وفاة أحمد بن إبراهيم سنة: 1052هـ وبوصية منه قبل وفاته⁽¹⁹⁾.

ثالثا: الشيوخ والتلاميذ

1 - الشيوخ: كثر شيوخ الشيخ بن ناصر، الذين أخذ عنهم، كما تنوعت جنسياتهم، فجاء باعه العلمي تبعا لهذا التنوع وهذه الكثرة، وهذه إشارة إلى بعض شيوخه الكرام:

- أبوه محمد بن أحمد الذي أخذ عنه القرءان الكريم،

وبعض مبادئ التربية الحسنة.

- أبو الحسن علي بن يوسف الدرعي، والذي شهد له العام والخاص بتفوقه في العلوم العقلية والنقلية، فأخذ عنه العربية والبيان والفقه، وجل استفادته منه في العلوم الظاهرة(20).
- محمد بن أبي بكر الدلائي بسنده عن شيوخه.
- محمد البكري الدادسي عن محمد بن مهدي الجراري بسنده(21).
- محمد بن أحمد المصمودي صاحب «عمدة الخطيب»(22).
- أبو زكرياء يحيى السراج الأندلسي عن أبي الحسن علي بن هارون عن ابن غازي، الذي أجازه محمد بن سعيد السوسي المرغيتي صاحب «المقنع في مختصر أبي مفرغ»(23).

كما أخذ عن شيوخ آخرين أثناء رحلته إلى المشرق، منهم على سبيل المثال لا الحصر شيخ الشيوخ أبو بكر بن يوسف السجستاني، وعبد المعطي المالكي المصري، الذي أخذ عنه تلخيص «المفتاح على الفنون الثلاثة المعاني والبيان والبديع».

وذكر صاحب الصفوة أنه تتلمذ على يد الإمام العياشي فسمع منه الصحيح وأجازه فيه، كما أخذ عن الشيخ أبي عبد الله ابن فتوح التلمساني، وأخذ أيضا عن الشيخ محمد البابلي الشافعي بعض أحاديث البخاري فأجازه جميع مروياته ومسموعاته.

ونلاحظ من خلال النظرة الأولى على شيوخ بن ناصر تنوع معارفه تبعا لتنوعهم، وكان لهذا الأثر البالغ في ثقافة بن ناصر، وسيظهر ذلك من خلال كتاباته وتآليفه وشهادة عدد من المترجمين له.

2 - التلاميذ: ذكرت أغلب كتب التراجم أن لابن ناصر تلاميذ كثيرين أخذوا عنه، وفيما يلي عرض لحياة أبرزهم:

- أخوه أحمد بن ناصر: فقد قرأ عليه حفظا «مختصر خليل» و«الجرومية» و«ابن عطية» و«الخزرجية» و«التسهيل».
- محمد بن عبد المومن الجريري، الذي تخرج على يده عدد كبير من العلماء من مختلف جهات المغرب(24).
- وأخذ عنه من سجل ماسة كل من: مبارك بن عبد العزيز العنبري، وعبد الملك بن محمد بن محمد التجموعتي وأخوه أحمد ومحمد، وأحمد بن عبد العزيز بن أبي محلي(25).
- ومن الأطلس المتوسط أخذ عنه كل من: عبد الله بن محمد العياشي، والحسن بن مسعود اليوسي.
- ومن جهات أخرى أخذ عنه كل من: البهلول بن عبد الرحمان البوعمامي، والمكناسي، وعلي المراكشي، وأحمد بن عبد القادر التستوتي، وعبد الرحمان السويدي المكناسي وغيرهم كثير.

وأصبحت لشيخ بن ناصر مدرسة برسم الإقراء، واستطاع بعض طلابه الجهابذة الاشتغال معه في التدريس، خاصة بعد توسع مجالات الشيخ، وازدياد عدد الطلبة الوافدين على المدرسة لتلقي العلوم الشرعية. ومنذ ذلك الوقت كان الشيخ رحمه الله يقوم بمثل ما يقوم به الآن عمداء الكليات ومديرو المدارس والمعاهد الدينية من البحث عن العلماء العاملين المخلصين ليكونوا قدوة للتلاميذ والطلبة، وغالبا ما يرغبهم في المقام والمكوث معه، وفي بعض الأحيان يزوجهم بناته أو أخواته أو قريباته، وقد أشار صاحب الطلعة من أنه «يتخير لبناته ولا يصاهر بهن إلا أهل العلم أوالدين»(26).

رابعا: زهده وتقشفه

لقد أشار المترجمون للشيخ بن ناصر أنه كان زاهدا في الدنيا، وعاش معيشة قاسية خاصة في بداية توليه أمر الزاوية

وكثرة روادها من الطلبة والمريدين، وقد نقل أبو العباس الجز ولي في إنارة البصائر بعض تقشفه فقال: «وصبر على معيشته وكسوته، وكان ينام مع أهله على التراب، لأنه لا يجد ما يشتري به حصيرا يفرشه، وربما فرش ليفا أو جريد نخل، وقد أرسل إليه تلميذه الأجل سيدي منصور بن أحمد التيرسوتي حصيرا فآثر وضع كتبه عليه على نفسه»(27).

وفي نفس المعنى قال تلميذه أبو العباس الجز ولي: «وقد شاهدته في صغري لما كنت عنده برسم الإقراء... يأتي الطلبةَ بنفسه حساء أو لبنا، ويرزقنا كل شهر صفحة تمر، وبالليل كسكوسا قليلا، يجيء لكل طالب نحو ثلاث لقيمات أو أربع ويقول: يا معشر الطلبة: والله ما يأكل عيالُنا وأهل الزاوية إلا كما تأكلون ولا نوثر أنفسنا عليكم بشيء»(28).

خامسا: مكانته العلمية

نال الشيخ محمد بن ناصر نصيبه من ألقاب الثناء والإشادة بمقومات شخصيته العلمية عند الذين ترجموا له وهم كثيرون، فقد كان علما مبرزا في علوم شتى، ورعا فاضلا، جمع شخصه شيم التواضع والحزم والذكاء مع استقامة في اللسان وفصاحة القلم، بالغ مترجموه في الثناء عليه.

فقد وصفه أبو سالم العياشي في فهرسته ب»الحافظ الجامع الزاهد الخاشع، ألين أهل زمانه عطفا وأشدهم لله خوفا، الموفق في السلوك والحركة، المقرونة أحواله بالبر والبركة... حضرت مجالسه في كثير من العلوم: فقها وتفسيرا ونحوا وحديثا وتصوفا، عديم النظير في العربية يحفظ التسهيل عن ظهر قلب(29).

ويقول عنه تلميذه أبو علي اليوسي: «وكان رحمه الله مشاركا في فنون العلم، كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف... وكان -مع انكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة- لا يخل بالعلم الظاهر تدريسا وتأليفا وتقييدا وضبطا، فنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقا وغربا... «كما قال أيضا: «قرأت عليه التسهيل وجملة من مختصر خليل، والتفسير والمدخل لابن الحاج والإحياء للغزالي وجزءا من البخاري والشفاء والطبقات للشعراني(30).

ووصفه صاحب محمد بن مخلوف ب»الإمام العالم العامل الفقيه القدوة الذكي الفاضل مجدد طريقة الشاذلية، مربي العلماء»(31).

ووصفه صاحب الصفوة بالإمام علم الأعلام العامل العالم(32).

ووصفه الدليمي الورزازي في نوازله «بقطب الزمان وعلامة الأوان الجامع بين السنة والطريقة والحقيقة والشريعة»(33).

وقال فيه ابن عبد السلام الناصري: «كان الشيخ الإمام أبو عبد الله بن ناصر يعمر ما بين الظهرين -دائما في أيام السنة- بقراءة الكتب الستة دراية، فكلما ختم واحدا ابتدأ بالآخر، وفي رمضان يعود لسرد البخاري على عادة ابن غازي بفاس».

أما شقيقه الحسين فقد ذكر أنه درس عليه مجموعة مهمة من المتون والمؤلفات يطول المقام بذكرها(34).

وقال عنه تلميذه أبو العباس الجزولي في فهرسته: «... محمد بن ناصر الدرعي كان عديم النظير في العربية يحفظ التسهيل عن ظهر قلب، وهو آخر من قرأ كتاب سبويه بالشرق والغرب. له تآليف مشهورة»(35).

وقال فيه صاحب الدرر المرصعة: «لا نظير له في أهل عصره فقها وعربية ولغة وحديثا وسيرة وعروضا وحسابا وفرائض وأصولا وكلاما وبيانا وتفسيرا وتاريخا لاسيما علم التصوف...»(36).

وأجمل ما قيل في مكانة الشيخ بن ناصر قولة القادري الشهيرة: «لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن

الحادي عشر لكثرة الفتن التي ظهرت فيه، وهم: سيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي في الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي(37).

ومن الجوانب التي تتجلى فيها هذه المكانة العظيمة:

1 – إتباعه للسنة: فقد كان شديد الإتباع للسنة في سائر أحواله(38)، ونقل عنه قوله: «ما علمت حديثا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عملت به ولو مرة واحدة، وإن كان مخالفا لمذهب الإمام مالك تبركا به(39).

2 – طريقته في التعليم: حيث كانت طريقة علمية يقتصر فيها على حل كلام المصنف وما يتعلق به من كلام الشارح دون الإكثار من النقول، ونقل عنه قوله في هذا الصدد: «الإقتصار على صورة المسألة أنفع للمبتدئين، والإكثار من الإنتقال أضر بالمتعلمين»(49).

3 – جمعه للكتب ونسخه لها: حيث كان شديد الولوع بالكتب شراء واستنساخا(41).

4 – اهتمامه بالحديث: ذلك أنه يعمر دائما بين الظهرين في أيام السنة بقراءة الكتب الستة دراية.

5 – جمعه بين العلم والتصوف: لقول اليوسي في الفهرست: «وكان رحمه الله مع إكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بالعلم الظاهر تدريسا وتأليفا وتقييدا وضبطا، فنفع الله به الفريقين(42).

6 – الكرم: حيث عرف في زاويته بإطعام الطعام، وقام بحق الجميع من الطلبة والعيال والزوار والجيران والمساكين والمحتاجين والفقراء والأيتام، ويؤثر عنه قوله: «نحن لا نبخل بموجود ولا نتكلف بمفقود»(43).

7 – أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر: فقد كان رحمه الله آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا يترك بزاويته من يستعمل الدخان أو غيره من الأمور التي تتنافى والقيم الأخلاقية(44).

سادسا: تراثه العلمي

من بين المميزات التي يتميز بها الشيخ محمد بناصر أنه لم يقف عند حدود الاستهلاك، أي استهلاك العلم، وإنما تعداه إلى حدود الإنتاج والعطاء، فعطاءاته في مجال التأليف بينة وواضحة، إذ بقي جلها محتفظا به في أغلب الخزانات الوطنية. فقد ترك الشيخ رحمه الله مجموعة من الآثار العلمية المهمة، والتي من خلالها نستطيع استجلاء شخصية الشيخ الفذة، ولقد عالجت هذه الآثار العلمية مختلف أصناف العلوم، وهكذا خلف لنا ما يلي:

1 – كتاب المناسك: وهو خلاصة ما يجب على الحاج أن يعرفه، وأن يفعله في الأماكن المقدسة.

2 – أحكام غسل الموتى.

3 – حاشية على الصحيحين كتبها على هامش نسخة من كتابي البخاري ومسلم، وأخرجها ولده أحمد.

4 – كتاب أذكار في عمل اليوم والليلة: جمعه ابنه عبد الله.

5 – كتاب في الأدعية يشبه دليل الخيرات، سماه: «غنيمة العبد المنيب في التوسل بالصلاة على النبي الحبيب». رتبه على حروف المعجم، وبناه على غرائب لغوية وصعوبة متزايدة، لأجل تدريب القارئ على اللسان العربي الفصيح، ولغرابة ألفاظه وعمق مضمونه حظي هذا المخطوط بشروح كثيرة(45).

هذا كله في مجال النثر، أما في مجال النظم فقد خلف آثارا كثيرة أهمها:

6 – مساعدة الإخوان: وهي قصيدة رائية وضعها لزوجاته وبناته والمبتدئين من المريدين، وهي في الفقه، نظمها على غرار ابن عاشر ضمنها كلا من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وباب في التوحيد، ولها شروح(46).

7 – منظومة سماها: «وسيلة العبد المذنب الضعيف

إلى مولاه العفو اللطيف» تزيد على سبعين بيتا ولها شروح مهمة(47).

8 - منظومة أخرى سماها: «سيف النصر» وشرحها ابن شرحبيل في ثلاثة شروح، كبير ومتوسط وصغير، وهي من القصائد المشاعة والمتداولة، وتقرأ في المساجد بعد الحزب الراتب، وفي الزوايا كل جمعة، وشرحها كذلك محمد بن عبد السلام بناني الفاسي(48).

9 - منظومة أخرى تسمى ب: «الدعاء الناصري». وهي مشهورة ويحفظها الكثيرون من الطلبة والمريدين.

10 - كتاب الأجوبة: وقد جمعها عن الشيخ تلميذه أبو عبد الله محمد بن القاسم الصنهاجي(49)، وهي أجوبة مشهورة منقول بعضها في نوازل الوزاني، وتوجد نسخه في بعض خزانات المكتبات العامة والخاصة، وجاءت في حوالي أربعمائة وسبعة عشر سؤالا وجوابا، وقسمت إلى أربعة وأربعين فصلا(50).

كما جمع له ابنه أحمد بعض رسائله في كتاب سماه «إتحاف المعاصر برسائل الشيخ ابن ناصر»، وبذلك يكون الشيخ رحمه الله قد ترك أعمالا مهمة ذاع صيتها شرقا وغربا، زد على ذلك ما قام بنسخه كالقاموس المحيط، والقاموس البسيط، والمرادي على التسهيل، وأمالي أبي علي البقالي، وبعض الكتب لابن عبد ربه، كما قام بالتصحيح والمقابلة لكتب أخرى.

سابعا: منهجه في التأليف من خلال أجوبته

إن المتصفح لأجوبة ابن ناصر سيجد ولا شك أن منهجه يقوم على عناصر أهمها:

1 - الاستدلال بالنصوص الشرعية: فرغم قلة النصوص الواردة في الكتاب، إلا أن المؤلف يفتي في كثير من أجوبته بما لا يخالف النصوص الشرعية، ويحكم بالبدعة وعدم المشروعية على كل فعل يخالف تلك النصوص، من ذلك قوله رحمه الله: «إن العرف يوزن بالسنة فإن وافق السنة عمل به وإلا فلا»(51).

2 - الإفتاء بمشهور المذهب المالكي: ويتضح ذلك من خلال تصريحه مرات عديدة بذلك، وخير مثال على هذا قوله وهو يجيب على سؤال عن التشاؤم ببعض الأيام فقال: مذهب مالك أن الأيام كلّها لله تعالى والتحرج من السفر في بعضها أو فعل ما من التطير المنهي عنه(52).

3 - الاعتماد على مصادر الفقه المالكي: فالمطلع على أجوبة الشيخ سيجد ولا شك ندرة ذكره للمصادر التي اعتمدها وهو يجيب على الأسئلة الواردة عليه، والتي ذكرها لا تخرج عن المذهب المالكي كمختصر خليل، ومقدمات ابن رشد، كما ينقل عن فقهاء آخرين دون ذكر مصادرهم، كابن حبيب وابن حمدون. كما ينقل كثيرا عن أعلام التصوف مثل الشيخ زروق، والفضيل بن عياض والكرخي(53).

4 - التخفيف ورفع الحرج: ويتضح ذلك من خلال جوابه على سؤال حول إمام مسجد اشترط عند قوم فيهم سراق ومن يتناول الربا بيعا وشراء، هل يسوغ له أخذ الشرط منهم، وهل تصح الصلاة وراءه، فأجاب بنفي الحرج عليه إن لم يعلم...

5 - مراعاة الأحوال والزمان والمكان والضرورة: فكثيرا ما تطرح عليه أسئلة تختلف ظروفها وأزمنتها، فيجيب بقوله: ترك ذلك أولى، وإن اضطر إلى ذلك فلا بأس(54).

6 - النزول إلى الواقع للضرورة.

7 - الإيجاز والوضوح في الجواب: فالملاحظ من خلال إجابات الشيخ أنه لا يهتم بالتفصيل والتفريع، بل كثيرا ما يقول بالجواز أو عدم الجواز، دون أن يبحث عن الدليل، أو يفصل في المسألة، وله عذره في ذلك خاصة وأن المقام يقتضي الإيجاز، ثم إن أغلب المستفتين من الطبقة التي لا تقرأ ولا تكتب، ولا يفيدها الاسترسال في الأدلة، وكذا أقوال فقهاء المذهب الكثيرة ■

الهوامش:

1. قواعد التصوف» قاعدة 13 ص 6 لأبي العباس أحمد الشهير بزروق الفاسي، ولد سنة 846هـ بمدينة فاس، وتوفي سنة 899هـ في طرابلس الغرب].
2. النصرة النبوية» للشيخ مصطفى المدني ص22. نقلا عن الإمام الجنيد المتوفي الإمام سنة 297هـ
3. رواه البخاري، كتاب الإيمان.ومسلم،كتاب المساقاة ،عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
4. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه.
5. انظر:نشر المثاني لمحمد الطيب القادري ص:11، صفوة من انتشر للإفراني ص:173، الدرر المرصعة لمحمد المكي الناصري ص:337.
6. مكان يبعد عن زاكورة بحوالي عشر كلومترات.
7. طلعة المشتري ص:119 - 121.
8. الدرر المرصعة لمحمد المكي بن موسى الناصري،تحقيق محمد الحبيب النوحي ص:337.
9. الدرر المرصعة،تحقيق محمد الحبيب نوحي ص338.
10. الدرر المرصعة ص:280.
11. شجرة النور الزكية ص:313،الدررص:346.
12. الشجرة ص:313.
13. الدرر المرصعة ص:339.
14. طلعة المشتري ص: 128 - 129، صفوة من انتشرص:175، الدرر المرصعة ص:340.
15. الدرر المرصعة ص:340،طلعة المشتري ص:128 - 129.
16. طلعة المشتري ص:131.
17. المرجع نفسه ص:132.
18. الدرر المرصعة ص.341، طلعة المشتري ص:132.
19. طلعة المشتري ص:1 / 143، الدرر المرصعة ص:343.
20. الدرر المرصعة ص:280.
21. المرجع نفسه ص:339.
22. المرجع نفسه ص:346.
23. المرجع نفسه ص:339.
24. الدرر المرصعة ص:311.
25. المرجع نفسه ص311.
26. طلعة المشتري:1 / 145.
27. مجلة المناهل، عدد15. الدرر ص: 343.
28. الدرر المرصعة ص: 343.
29. اقتفاء الأثر... لأبي سالم العياشي، طلعة المشتري:1 / 166.
30. فهرسة أبي علي أليوسي،مخطوط.
31. شجرة النور الزكية ص:313.
32. صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر ص:173.
33. نوازل الورزاز،مخطوط الخزانة العامة،الورقة 8 أ.
34. رجع المؤلف:فهرس ابن ناصر لأحمد السعيدي ص:92 - 94 - 100 - 102.
35. الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى: 7 / 105 - 106.
36. الدرر المرصعة ص:351.
37. حضارة وادي درعة ص:15.
38. صفوة من انتشر: 174 نقلا عن تحفة الأخلاء لأبي سالم العياشي.
39. الدرر المرصعة ص:354.
40. طلعة المشتري : 1 / 159.
41. حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار للمنوني، مجلة دعوة الحق، السنة 16 أكتوبر 1973.
42. المرجع السابق ص:144، نقلا عن اليوسي.
43. الدرر المرصعة ص:347، رسائل أبي علي اليوسي: 2 / 404.
44. طلعة المشتري: 1 / 159.
45. انظر:طلعة المشتري: 1 / 313 - 314.
46. الدرر المرصعة ص:352، طلعة المشتري ص:317.
47. طلعة المشتري ص:318.
48. المرجع نفسه ص:323 - 324.
49. الدرر المرصعة ص:353.
50. شجرة النور الزكية ص:313.
51. الأجوبة، الورقة 37 أ.
52. الأجوبة، الورقة: 26 ب.
53. كان هذا في مواضيع كثيرة من الأجوبة.
54. الأجوبة ص: 32.